المحاضرة الثالثة في اللسانيات العامة، المجموعة الأولى، السنة الثانية، الشعبة الأدبية.

أ.حسن العايب.

علم اللسانيات الحديث: إن اللسانيات علم يمتلك كل الخصوصيات المعرفية التي تميزه عن سواه من العلوم الإنسانية الأخرى من حيث الأسس الفلسفية والمنهج والمفاهيم والاصطلاحات.

غير أن ما تقتضيه الضرورة العلمية هو أنه لابد لكل علم من موضوع يعد مادته التي توضع لإجراءاته التطبيقية، وموضوع اللسانيات هو اللسان.

ومن البديهي كما هو شائع في التصور العلمي للفكر الإنساني أن يحدد العلم موضوعه تحديدا دقيقا في إطاره التاريخي، والمعرفي، قبل أن يحدد نفسه، وما كان ذلك إلا لأن موضوع العلم سابق للعلم في الوجود، إذ لولا وجود الظاهرة ما كان العلم بها. ومن هنا يتقدم –إلزاما– تعريف العلم لموضوعه على تعريفه لنفسه. ولذلك يجدر بنا نحن في هذا المقام أن نعرّف اللسان قبل أن نعرّف اللسانيات.

1– اللسان في الاصطلاح: إذا ما نظرنا نظرة عجلى إلى التراث الفكري العربي نجد أغلب الدارسين يستعملون مصطلح اللسان، ويعنون به النظام التواصلي المشترك بين أفراد المجتمع في البيئة اللغوية المتجانسة، وهم إذا استعملوا أحيانا مصطلح /اللغة/ فيعنون به لهجة معينة، أو حالة نطقية مخصوصة[1]. فاللسان في الفكر العربي هو موضوع الدرس اللغوي ونجد ذلك جليا عند اللغويين الدارسين القدماء نذكر منهم:

أ– الفارابي: (ت 339هـ) إذ يقول في هذا الشأن: "علم اللسان ضربان: أحدهما حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما، وعلى ما يدل عليه شيء منها، والثاني قوانين تلك الألفاظ (...)، إن الألفاظ الدالة في لسان كل أمة ضربان مفردة ومركبة (...) وعلم اللسان عند كل أمة ينقسم سبعة أجزاء عظمى: علم الألفاظ المفردة، وعلم الألفاظ المركبة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة، وقوانين الألفاظ عندما تركب، وقوانين تصحيح الكتابة، وقوانين تصحيح القراءة، وقوانين تصحيح الأشعار"[2].

يستشف من خلال هذا الطرح أن الفارابي كان على دراية عميقة بطبيعة اللسان باعتباره الموضوع الوحيد لأي دراسة تسعى إلى استكشاف القوانين الضمنية التي تتحكم في بنية الظاهرة اللغوية.

---

[1] – أنظر المحاضرة الأولى.

[2] – أنظر مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994، ص: 12.

ب– ابن خلدون: نجد مصطلح اللسان كما سبق ذكره[1]، بوصفه موضوعا للدراسة العلمية شائعا، ومألوفا عند ابن خلدون إذ أنه أفرد فصلا في مقدمته عنونه بـ "في علوم اللسان العربي" ثم أدرج تحت هذا العنوان: علم النحو، علم اللغة، علم البيان، وعلم الأدب[2].

إن مصطلح اللسان (langue) يدل على نظام تواصلي قائم بذاته، وهذا النظام يمتلكه كل فرد متكلم/مستمع ينتمي إلى مجتمع له خصوصيات ثقافية، وحضارية متجانسة، ويشارك أفراد في عملية الاتصال. ولهذا النظام أبعاده الصوتية، والتركيبية، والدلالية، وهو من ههنا الذاكرة التواصلية المشتركة بين أفراد المجتمع، وهي الذاكرة التي يمكن لها أن توصف بالعربية، أو الفرنسية، أو الإنجليزية، فيقال اللسان العربي، واللسان الفرنسي، واللسان الإنجليزي.

وحينما ينجز هذا المخزون المشترك في الواقع الفعلي، أي حينما يتحول من الموجود بالقوة إلى الموجود بالفعل يصبح كلاما (parole) أي الإنجاز الفعلي للسان في الواقع.

فاللسان في جوهره أصوات، والأصوات علامات تترابط منسجمة في تكامل بحيث تشكل بنية هي البنية الصوتية التي تقترن بمدلولها لتحقيق العملية الإبلاغية عن طريق البنية التركيبية.

2– مصطلح اللسانيات: ظهر مصطلح اللسانيات أول ما ظهر في ألمانيا (linguistik)، ثم استعمل في فرنسا ابتداء من سنة 1826م، ثم في إنجلترا ابتداء من سنة 1855م.

اللسانيات هي الدراسة العلمية، والموضوعية للسان البشري، من خلال الألسنة الخاصة بكل مجتمع، فهي دراسة للسان البشري، وتتميز بالعلمية، والموضوعية وسنقف عند هاتين الميزتين:

أ– العلمية: نسبة إلى العلم، وهو يوجه بوجه عام المعرفة وإدراك الشيء على ما هو عليه.

وبوجه خاص، دراسته ذات موضوع محدد، وطريقة ثابتة، وتنتهي عند مجموعة من القوانين:

والعلم ضربان:

– **نظري:** يحاول تفسير الظواهر، وبيان القوانين التي تحكمها.

– **تطبيقي:** يرمي إلى تطبيق القوانين النظرية على الحالات الجزئية.

---

[1] – أنظر المحاضرة الأولى.

[2] – مقدمة ابن خلدون، ص:

ب– الموضوعية: نسبة إلى الموضوعي، وهو مشتق من الموضوع، أي كل ما يوجد في الأعيان، والعالم الخارجي، في مقابل العالم الداخلي أو الذات، والموضوعي هو ما تتساوى حالاته عند جميع الدارسين على الرغم من اختلاف الزوايا التي يتناولون من خلالها الموضوع. ومن ههنا وجب أن تكون الحقائق العلمية مستقلة عن قائليها، بعيدة عن التأثر بأهوائهم، فتتحقق في البحث العلمي الموضوعية، والنزاهة، فالموضوعية حينئذ هي: طريقة العقل الذي يتعامل مع الأشياء على ما هي عليه فلا يشوهها بنظرة ضيقة، أو تحيز ذاتي[1].

ونعني بالدراسة العلمية البحث الذي يستخدم الأسلوب العلمي المعتمد على المقاييس التالية:

1- ملاحظة الظاهرة، والتجريب، والاستقراء.

2- الاستدلال العقلي، والعمليات الافتراضية، والاستنتاجية.

3- استعمال النماذج، والعلائق الرياضية للأنساق اللسانية مع الموضوعية المطلقة.

3– الغاية المتوخاة من البحث اللساني: يمكن لنا حصر الأهداف التي تسعى الدراسة اللسانية إلى تحقيقها فيما يلي:

1- تسعى اللسانيات إلى معرفة أسرار اللسان من حيث هو ظاهرة إنسانية عامة في الوجود البشري.

2- استكشاف القوانين الضمنية التي تتحكم في بنيته الجوهرية.

3- البحث عن السمات الصوتية، والتركيبية، والدلالية الخاصة للوصول إلى وضع قواعد كلية.

4- تحديد خصائص العملية التلفظية، وحصر العوائق العضوية، والنفسية، والاجتماعية التي تعوق سبيلها[2].

4– مستويات التحليل اللساني: مما لا ريب فيه أن طريقة الإجراء الوصفي والتحليل تخضع منهجيا إلى طبيعة الموضوع الذي يشكل مادة البحث، ويتجلى موضوع اللسانيات في ثلاثة مظاهر (أصوات، تركيب، دلالات)، ومن ههنا فإن التحليل اللساني يظهر في ثلاثة مستويات أيضا، وهي:

4-1– المستوى الصوتي، وهو نوعان:

أ– طبيعي: ويتكون من جانبين:

---

[1] – مباحث في اللسانيات العامة، أحمد حساني، ص: 15 ومناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، بريجيته بارتشت، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، مصر 2004، ص: 254.

[2] – مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ص: 15.

–جانب فيزيولوجي: يتعلق بالجانب النطقي (جهاز النطق)، والجانب السمعي (جهاز السمع).

– جانب فيزيائي: يتعلق بالأصوات في مظهرها الفيزيائي، أي حينما تتحول الذبذبات الصوتية إلى أمواج عبر الأثير.

ب– لغوي: يتعلق بالأصوات اللغوية بوصفها الحامل المادي للأفكار، والدلالات أثناء الإنتاج الفعلي للكلام في الواقع اللغوي.

في رحاب هذا التصنيف ظهر علمان فرعيان يتناولان الجانبين المشار إليهما أعلاه:

1- علم الأصوات العام: (phonétique) يدرس الجانب الفيزيولوجي، والفيزيائي.

2- علم الأصوات الوظيفي: (phonologie) يدرس الأصوات اللغوية من حيث هي عناصر وظيفية.

4-2- المستوى الدلالي: يتعلق بالدلالات اللغوية في لسان ما، وله علم خاص ينعت بـ "علم الدلالة" (sémantique).

4-3- المستوى التركيبي: يرتبط بالعلائق الوظيفية للبنية التركيبية في لسان ما، وله علم فرعي ينعت بعلم التركيب (syntax).

إن أقل الناس إلمام بالتحول المرحلي للنظرية اللسانية في الفكر الإنساني المعاصر يدرك لا محالة أن اللسانيات أصبحت مركزا استقطاب بلا منازع، فكل العلوم أصبحت تلتجئ إليها سواء كان ذلك في مناهج بحثهما، أم في تقدير حصيلتها المعرفية، فإذا هي قطب الرحى في الحركة التأسيسية لكثير من مرتكزات الفكر الإنساني المعاصر، لا من حيث تأصيل المنهج، وتطوير طرائق إخصابه فحسب، بل من حيث أنها تتخذ اللسان البشري مادة له، وموضوعا، الأمر الذي أضفى على اللسانيات طابع الشمولية والاتساع، وما كان ذلك إلا لأن اللغة عنصر ثابت ومشترك بين جميع العلوم الإنسانية، ولذلك فإن اللسانيات تتقاطع منهجيا مع معارف إنسانية متعددة، نتج عن هذا التقاطع ظهور فروع خارجية للسانيات من هذه الفروع ما يلي:

5- لسانيات دوسوسير: إن النظرية اللسانية المعاصرة أخذت خصوصياتها المميزة منذ أن ظهرت إلى الوجود الأفكار العلمية التي جاء بها دوسوسير في مجال البحث اللساني، ومن ههنا يعد دوسوسير مؤسس اللسانيات في الثقافة الإنسانية المعاصرة دون سواه، فمن هو دوسوسير؟

ولد دوسوسير سنة 1857 بجنيف، من أسرة عريقة اشتهر أفرادها بالتنوع في العلوم الطبيعية، والدقيقة.

وعرف عن دوسوسير ولوعه الشديد بالدراسات اللغوية الأمر الذي جعله يهتم بدراسة اللغتين اليونانية، والسنسكريتية، فضلا عن إتقانه للغة الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، واللاتينية.

وفي سنة 1878 أنهى مشروع البحث الذي يحمل عنوان: مذكرة في النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندو أوروبية –mémoire sue le système primitif des voyelles dans les langue Indo-Européennes، وقد حقق له هذا البحث –وهو لا يتجاوز 21 سنة– شهرة عالمية رافقته حتى وفاته، بل ظلت حاضرة في الثقافة اللسانية بعد وفاته. وكان بهذا العمل قد حدد نظرية النحو المقارن بحيث عالج أصعب مشكلة من مشكلاتها، معتمدا على العلاقات الداخلية أو الوظيفية ومبتعدا عن الوصف الصوتي الذي كان مسيطرا على كل الدراسات المتعلقة بأصوات اللغة.

وفي سنة 1880 تقدم بأطروحته التي كان موضوعها: استعمال المضاف المطلق في اللغة السنسكريتية (l'emploi du génitif absolu en sanscrite) وهو بحث تحصل فيه على درجة الدكتوراه بدرجة ممتاز من جامعة لايبسيك. وبعد وفاته سنة 1913، تكفل اثنان من تلامذته وهما شارل بالي (C. Bally) وسيشهاي (Sechehaye) فجمع الأمالي التي كانت مدونة عند تلامذته من سنة 1909 إلى سنة 1911. وجمعت في كتاب ظهر إلى الإنسانية سنة 1916 بعنوان دروس في اللسانيات العامة (cours de linguistique générale).

لقد أثار هذا الكتاب الكثير من الاهتمام لدى المفكرين، والدارسين آنذاك، على الرغم من الظروف غير المواتية بسبب الدمار الفكري، والحضاري الذي أحدثته الحرب العالمية الأولى[1].

وما أن ظهرت الطبعة الأولى للكتاب (1916) حتى بدأ ينتشر في الثقافات الإنسانية المختلفة، وقد ترجم إلى العربية في بداية الثمانينيات في ترجمات متعددة.

وتنحصر مهمة اللسانيات في نظر دوسوسير في المجالات التالية:

1- وصف كل الألسنة، والتأريخ لها في القيام بالتأريخ للعائلات اللغوية، وإعادة بناء أصول كل عائلة.

2- البحث عن القوى الفاعلة بشكل دائم في كل ألسنة، واستنباط القوانين العامة التي يمكن لنا أن نبرر بها كل ظواهر التاريخ الخاصة.

3- تميز اللسانيات نفسها عن باقي العلوم، وتحديدها لنفسها بنفسها.

5-1- لسان/ كلام: حينما همّ دوسوسير بوضع معالم نظريته اللسانية اصطدم ببعض المصطلحات التي تتعلق بحقيقة اللغة البشرية، فتوجب عليه تحديد مفاهيمها، والفصل بين مدلولاتها، وهذه المصطلحات هي:

[1] – مناهج علم اللغة، بريجيته بارتيشت، ص: 86، ومباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ص:31.

أ– اللغة (langue): ملكة تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية، وهي في كليتها ظاهرة معقدة، ومتجلية في عدة أشكال، وغير متجانسة، بحيث تندرج ضمن عدة مجالات فيزيائية، وفيزيولوجية ونفسية[1]، الأمر الذي يجعل البحث فيها صعبا بل مستحيلا.

ب– اللسان (langue): هو النظام التواصلي الذي يمتلكه كل فرد متكلم/ مستمع ينتمي إلى مجتمع لغوي ذي ثقافة، وحضارة متميزة[2].

وبهذا الاعتبار فهو الجزء الاجتماعي من اللغة، لأنه يخرج من نطاق الأفراد، فلا يقوون على تعديله، أو تحريفه، إذ هو موجود بمقتضى عقد اجتماعي ضمني بينهم، لذلك لم يرتبط اللسان بالفرد لأنه متجاوز له[3].

يأخذ الفرد اللسان قسرا عن الجماعة التي ينتمي إليها، يقول سوسير: "ليس اللسان من وظائف الفرد، بل هو أثر يسجله بكيفية سلبية"[4].

يتكلم الفرد لسان قومه دون أن يكون له دخل في اختياره، كما يتعلمه بطريقة سلبية فهو مفروض عليه اجتماعيا.

ويتميز اللسان بأنه قار لا يتغير، وإذا تغير فإنه يتغير ببطء شديد، مما يؤهله أن يكون موضوعا للبحث اللساني عكس اللغة، والكلام.

جـ– الكلام: الكلام هو الإنجاز الفعلي الفردي للسان، فهو قائم على إرادة الفرد، ومرتبط بذكائه لأنه يقوم بإنتاج تراكيب وفق ما يوفره اللسان من إمكانات التعبير عن الأفكار، والأغراض.

وهو يختلف من فرد لآخر، إذ لكل واحد من الأفراد طريقته الخاصة في أداء اللسان، ولا يتحكم المجتمع في الكلام الفردي، إنما يراقب فقط ما هو عام، ومشترك من قواعد النظام اللساني، وكل فرد يخرج عن النظام اللساني للمجتمع يعرضه لجملة من الصعوبات التي تحول دون اندماجه في البنية الاجتماعية العامة[5].

ويميز دوسوسير بين اللسان والكلام فيقول: "إننا إذ نفصل [اللسان] عن [الكلام] نفصل في الآن نفسه: أولا ما هو اجتماعي عمّا هو فردي، ثانيا، ما هو جوهري عما هو ثانوي وعرضي بدرجة من الدرجات".

---

[1]– اللسانيات البنيوية، منهجيات واتجاهات، مصطفى غلفان، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2013، ص: 157.

[2]– مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ص: 37.

[3]– اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، (د،ط)، الدار التونسية للنشر، تونس 1986، ص: 100.

[4]– دروس في الألسنية العامة، دوسوسير – ترجمة: صالح الرقمادي وآخرون، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس 1985، ص: 34.

[5]– في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، مصطفى غلفان، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، المغرب 2010، ص: 220.

– دروس في الألسنة العامة، دوسوسير، ترجمة: صالح القرمادي وآخرين، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، المغرب 2010، ص: 220.

ولخّص تمام حسان المقابلة بين اللسان، والكلام في النقاط الآتية:

- الكلام عمل، واللسان حدود هذا العمل.

- الكلام سلوك، واللسان معيار هذا السلوك.

- الكلام نشاط، واللسان قواعد هذا النشاط.

- الكلام يدرك بالسمع نطقا، وبالبصر كتابة، واللسان يدرك بالتأمل في الكلام، فالكلام هو المنطوق، والمكتوب، واللسان هو المخزون في المتون اللغوية، الكلام فردي، واللسان عمل اجتماعي[1].

وتعرّض موقف دوسوسير من ثنائية لسان/ كلام/ إلى نقد كثير من الدارسين منهم ميخائيل باختين الذي ذكر أن تعارض اللسان مع الكلام، من وجهة نظر دوسوسير، كما يتعارض المجتمعي مع الفردي هو نواة الوهم عند هذا الأخير[2].

5-2- تاريخي/ آني: إن اللسان في نظر دوسوسير هو واقع قائم بذاته من جهة، وتطور تاريخي من جهة أخرى، في ظل هذا التصور للسان، يمكن لنا التمييز بين النظام اللساني الآني، أي اللسان في حالة زمنية محددة، وبين تاريخ هذا النظام.

الأمر الذي جعل دوسوسير يميز بين منهجين في التعامل مع الظاهرة اللغوية.

- المنهج الأول هو المنهج التاريخي، الذي يهتم بالتحول المرحلي للسان عبر الحقب الزمنية المختلفة.

- المنهج الثاني، هو المنهج الوصفي، الذي يتناول الظاهرة كما هي في الواقع اللغوي.

ولذلك، فإن اللسانيات – في نظر دوسوسير- تتفرع إلى فرعين:

أ- لسانيات تاريخية، تطورية (diachronique) وهي الدراسة القائمة على التعقب التطوري للمسار التحولي للغة عبر التاريخ.

ب- لسانيات سكونية، آلية (synchronique)، وهي الدراسة التي تهتم بالنظام اللساني في ذاته، ومن أجل ذاته في حالة لغة بمعزل عن التاريخ.

---

[1]- العربية مبناها ومعناها، تمام حسان، ص: 32.

[2]- ميخائيل باختين، المركسية وفلسفة اللغة، ترجمة: محمد البكري ويمنى العيد، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب 1986، ص: 81، وينظر اللغة، واللسان، والعلامة، عند دوسوسير، في ظل المصادر الأصول، مصطفى غلفان ص: 130.

ثم رغبة منه في توصيل حقيقة هذه الثنائية، يمثل لذلك بالدراسة التشريحية للنبات، فهو يرى أننا إذا قطعنا نبتة ما قطعا طوليا (عموديا) فإننا نلاحظ نمو الألياف في حالة تطورية فقط، أما إذا قطعناها قطعا أفقيا، فإننا في هذه الحالة نتمكن من ملاحظة جميع الألياف في تجمعها، على سطح معين وحصر العلاقات القائمة بينها، ومن ههنا فإن هذه الحقائق لا نستطيع إدراكها من القطع العمودي.

5-3- دال/ مدلول: إن طبيعة المنهج العلمي الذي تبناه دوسوسير في مجال البحث اللساني، أفرز رؤية تعاملية تميل إلى الشيء المحدد، والمتجانس في ذاته، فكانت فكرة النظام اللساني (système linguistique) الذي يتكون من وحدات أساسية متوافقة فيما بينها، تسمى هذه الوحدات بالعلامات اللسانية (signes) ومن ههنا فإن العلامة اللسانية في نظر دوسوسير هي وحدة النظام فهي العنصر اللساني الذي يتكون من صورة سمعية (image linguistique) ومفهوم (concept) أي الفكرة التي تقترن بالصورة السمعية، فمثلا كلمة رجل هي علامة لسانية مكونة من صورة سمعية، وهو الإدراك النفسي لتتابع (ر-ج-ل) ومفهوم، وهو مجموع السمات الدلالية (حي- ناطق- عاقل- إنسان).

فإن التتابع الصوتي إذا أخذ على حدة فإنه سوف لا يكون له علامة لسانية مستقلة، فما هو ترتيب لأصوات مجردة ليس إلا. كما أن السمات الدلالية التي تكون مفهوم الرجل لا تشكل علامة لسانية بمفردها، فهذا يقتضي الاتحاد التام بين الصورة السمعية، والمفهوم لتكوين العلامة اللسانية.

فيسمى علامة لسانية هذا المركب المتكون من المفهوم، والصورة السمعية، ويمكن لنا تمثيله بالشكل التالي:

ثم يصرح دوسوسير بالإبقاء على مصطلح العلامة للدلالة على الكل وتعويض /مفهوم/ و/صورة سمعية/ بلفظتي دال ومدلول (signifiant/ signifié)، ويرى دوسوسير أن أفضلية هاذين اللفظين أنهما يدلان على المواجهة التي تفصلها سواء فيما بينهما، أو من الكل الذي يجمعهما.

إن العلامة اللسانية — انطلاقا من هذا التصور- هي مركب يتكون من وجهتين دال، ومدلول يستحيل الفصل بينهما، لأنهما يرتبطان بعلاقة تواضعية، ويرى دوسوسير أن هذه العلاقة التي تربط بين الدال، والمدلول هي علاقة اعتباطية (arbitraire)، أي أن الرباط الذي يجمع بين الدال، والمدلول لمن نوع اعتباطي، أي هو من قبيل التواطؤ، والإصطلاح بين الناس، وهذا ما أقر به معظم الفلاسفة القدامى، لكن الجديد هو أن طبيعة الدليل بكامله هو بدورها اعتباطية أو تعسفية عند دوسوسير، ويطلق على الدليل المجموع الناتج من اشتراك:

- اللفظ، أو الصورة السمعية.

- والمعنى، أو التصور الذهني.

وكلاهما اعتباطي لأن الأول يفرضه المجتمع على المتكلمين بصفة تعسفية، أو بالمواضعة، والثاني راجع إلى التجربة اللغوية، وإلى الإدراك الحسي.

فمثلا فكرة "أخت" (sœur) لا تربطها أي علاقة داخلية بمجموع الأصوات التالية أخت، sœur، والتي تلعب دور الدال فقط، بحيث يمكن تمثيلها، والتعبير عنها بأية لغة أخرى كرمز الحداد، مثلا: فهو أسود في أوروبا، وأبيض في الصين، والدليل على ذلك هو وجود اختلافات في هذه التسمية بين اللغات.

لكن ماذا يقصد دوسوسير بكلمة arbitraire، ففي نظره، أنها تعني أن الدليل غير معلل (immotivé) أي أنه اعتباطي بالنسبة إلى الدال الذي لا يمت إليه بصلة تستند إلى الواقع، فالاستعمال وحده هو الذي يحدد ذلك وليس الواقع، ولا حتى المتكلم الذي لا يمكنه تغيير العلامات الثابتة أو التابعة لجماعة لغوية ما.

وهناك من اعترض على ما جاء به دوسوسير من مفاهيم (بنفنيسنت) في كتابه (problèmes de linguistique générale) مفسرا، وناقدا ومن القضايا التي استقطبت اهتمامه العلامة ومفهومها، كما يتصوره دوسوسير.

يرى بنفينيست أن الحكم الذي تبناه دوسوسير خاطئ بالرغم من أنه يركز على النطاق النفسي لتوحد الدال والمدلول، فإنه ضمنيا يوجد طرف ثالث أساسي في هذا التوحد، فيلاحظ بنفينيست أن هناك تناقضا في تصور دوسوسير للعلامة، لأنه في تعريفه للعلامة، يؤكد أن العلامة لا تربط بين شيء واسم، بل بين مفهوم وصورة سمعية، أو دال، ومدلول، وأن العلاقة التي تربط بين الدال، والمدلول هي علاقة اعتباطية، فالاعتباطية في نظر بنفنيست ليست بين الدال، والمدلول وإنما بين الدال، والشيء الموجود في الواقع الخارجي.

يخلص بنفينيست من ذلك أن الرابط الجوهري بين الدال، والمدلول ليس اعتباطيا بل العلاقة هنا علاقة تلازمية أي أن أحدهما سبب وجود الآخر، ما هو اعتباطي هو وقوع دال معين على شيء ما في الواقع الخارجي، فالاعتباطية حينئذ ليست بين الدال، والمدلول، بل بين الدال، والشيء الذي تحيل إليه العلامة أي المرجع[1].

5-4- محور ركني/ محور استبدالي: ترتبط هذه الثنائية بالعلاقات الذهنية بين الوحدات التي تكون الحدث اللساني عند المتكلم/المستمع للغة، وهي تتفرع إلى فرعين:

1/ العلاقات الاستبدالية (rapports paradigmatiques) والتي كانت في المباحث الأولية لدى دوسوسير بـ العلاقات الترتيبية (rapports associatifs).

[1] - مباحث اللسانيات العامة، أحمد حساني، ص: 41.

2/ العلاقات الركنية (rapports syntagmatiques)، مما لا ريب فيه هو أن العناصر اللسانية في الخطاب المنطوق، أو المكتوب تخضع خضوعا إلزاميا لسلطة الطبيعة الخطية للغة، فهي إذ ذاك ترتبط فيما بينها بعلاقات ركنية تقتضيها طبيعة اللسان اقتضاء، مما يجعل العناصر اللسانية أثناء العملية التلفظية، تتوالى، وتتلاحق في نسقية خطية لتشكل البنية التسلسلية للخطاب، ويرتد ذلك في جوهره إلى مجموعة السنن، أو القوانين التي تعتمد في الإجراء التأليفي بين العناصر المتعاقبة التي تكوّن المتوالية التلفظية، وذلك ما ينعت بالمحور الركني (l'axe syntagmatique) الذي يتكون من عنصرين لسانيين فأكثر، وأن القيمة الدلالية للعنصر اللساني تتحدد بالمقابلة بين العناصر اللسانية التي تسبقه أو تلحقه أو بهما معا، ومن جهة أخرى فإن الكلمات بمعزل عن الإنجاز الفعلي للخطاب، هي في علاقة قائمة على التشابه من حيث تركيب وحداتها في الذاكرة، وذلك ما يسميه دوسوسير بالعلاقات الترتيبية التي تكوّن المحور الاستبدالي (l'axe paradigmatiques).

6- السيميائية عند دوسوسير: ليس غريبا، ولا بدعة إن قلنا في حق دوسوسير أنه أول من نبه على إنشاء هذا العلم الجديد، ولقد فعل ذلك حين خصص فصلا صغيرا لمكانة اللغة بين الحوادث الإنسانية، وسماها السيميولوجيا (sémiologie) ولئن اقتبس المصطلح من الكلمة الإغريقية semeion التي تدل على العلامة فإن تفكيره حول اللغة أدى به إلى استنتاجين هامين:

- أولهما: "إن اللغة ما هي إلا نظام علامات تعبر عن أفكار، ومن ثمة فإن هذا النظام يشبه الأنظمة الأخرى مثل الكتابة، ولغة الصم، والبكم، والشعائر الرمزية، وعبارات المجاملة، والإشارات البحرية.. الخ، أما أهمية اللغة الإنسانية فإنها راجعة إلى كثرة شيوعها، واستعمالها بين الناس.

- وثانيهما: "أن اللسانيات- التي هي دراسة اللغة الإنسانية بمعناها العادي- ليست سوى جزء من هذا العلم العام "الذي يختص بدراسة كل أنظمة العلامات: اللسانية وغير اللسانية"، بحيث أن القوانين التي قد تكشف عنها السيميولوجيا أو تتوصل إليها هي صالحة، وقابلة للتطبيق على اللغة نفسها.

لكن دو سوسير لم يذهب إلى أبعد من هذا، أي أنه لم يتجاوز تحديد موضوع علم السيميولوجيا الجديد، وعلاقته باللسانيات علاقة احتواء لنظام خاص في نظام عام، والسبب في ذلك راجع إلى اهتمامه الأصلي بتعريف اللسانيات العامة وضبط ميادين بحثها.

ومما لا ريب فيه أن هذه الإرهاصات السوسورية الأولى هي التي سوف تفتح أبواب البحث، وآفاق التفكير في كل ما يتعلق بالسيميولوجيا، وبأنظمة العلامات على اختلاف أنواعها، وسوف ينشأ عنها اتجاهان سيميولوجيان:

- الأول هو اتجاه سيميولوجية الاتصال (sémiologie de communication) ويقوده إيريك بويزنس (Buyssnes) بمناصرة كل من جورج مونان (G. Mounin) ولويس بريتو (Prieto)، فهؤلاء كلهم ضيقوا كثيرا من مفهوم علم السيميولوجيا واشترطوا في كل عملية سيميولوجية وجوب اتفاق مسبق بين المرسل، والمرسل إليه،

والمستقبل أي لا بد من وجود نية الاتصال لدى المتكلم، ونية إدراك الرسالة من طرف السامع أو المستقبل، أما الوسائل، والعلامات الأخرى فهي لا تدخل في إطار السيميولوجيا لأنها تفتقد إلى أهم عنصر ألا وهو الاتصال اللساني.

وعلى هذا الأساس، فإن بويزنس يعرّف السيميولوجيا كالآتي: "يمكن تعريفها كدراسة الوسائل الاتصالية، أي الوسائل المستعملة للتأثير في الغير، والتي يشعر بها الغير على أنها كذلك".

وبمعنى أخر، فإن السيميولوجيا تهتم بالحوادث المرتبطة بحالات الوعي لدى المستقبل والمرسل معا.

وانطلاقا من وجوب فكرة الاتصال بين المرسل، والمرسل إليه، فقد تم التوصل إلى التمييز بين الوحدات المبنية على أساس الاتصال وتسمى العلامات (signes) والوحدات الخالية منها تسمى المؤشرات.

– والثاني هو اتجاه سيميولوجية الدلالة (sémiologie de signification) ويتزعمه رولان بارث بأبحاث قيمة نشرت في كتب عديدة منها "درجة الصفر في الكتابة" (1972).

خلاف الاتجاه الأول فإن الاتجاه الثاني يوسع من مفهوم السيميولوجيا بحيث لا يميز أصحابه بين الـ signe والindice من جهة ويأخذون بعين الاعتبار في كل دراسة لنظام العلامات ظاهرة الدلالة السياقية (connotations) من جهة أخرى.

فإذا ما رأينا –مثلا– عاملا يحمل قبعة معينة فهذا يعني أن تلك القبعة هي مؤشر كحالة اجتماعية معينة، لكن قد يحملها البرجوازي ليبلغ شيئا ما، ونفس الأمر يتعلق بالكلمات أيضا، إذ هي تحمل دلالات أكثر مما منحتها القواميس، والجماعات اللغوية معا. وخير مثال على ذلك هي كلمة indigène، فتعريفها في القواميس الفرنسية يعني كل ما هو "أهلي" أو "بلدي" ثم لحقت بها، مع مجيء الاستعمار دلالات ذات الصيغة العنصرية حتى صار الفرنسي المتوسط لا يقبل بتاتا أن ينعت بهذه الصفة. نتيجة هذا كله أن المعنى الممنوح من طرف المعاجم اللغوية ليس هو المعنى الوحيد بل إنه يخضع دائما للتحول طبقا للعامل الاجتماعي بواسطة العلامات اللسانية التي هي اجتماعية بالطبع.

ومن ثمة فإن كل علامة تحتوي على مستويين:

1- مستوى المعنى المكتسب أو الدلالة المعجمية (dénotation).
2- مستوى المعنى الإضافي أو الدلالة السياقية (connotation).

7– أنواع العلاقات بين المضمون والشكل في العلامات:

تصنف العلاقات حسب نوع العلاقة القائمة بين مضمونها وشكلها، ما يفضي إلى ثلاثة أسر كبيرة من العلامات وهي: الأيقون، والرمز، والمؤشر.

7-1- الأيقون (**icône**): علامة تتسم بوجود علاقة تشابه بين الفكرة التي تتضمنها والشكل المقترن بهذه الفكرة، وهكذا فإن صورة عود الثقاب الذي في رأسه لهيب المتضمن في إشارات المرور، هي صورة أيقونية لأن المضمون الذي تحمله الصورة "الحذر من النار" التي قد يتسبب في إشعالها بقايا سجائر لأحد السائقين، قد أشير إليها في الشكل وهو اللهيب في رأس عود الثقاب.

7-2- الرمز: علامة لا نتعرف فيها على رابط منطقي بديهي بين المضمون، والشكل، وتعدّ جلّ كلمات اللغة رموزا لانعدام الرابط المنطقي بينهما، وبين ما تحيل إليه من مسميات مثل كلمة "قط" التي تنعدم فيها أية علاقة تشابه بينها وبين الحيوان الذي يسمى "قط"، لذلك اختلف اسم هذا الحيوان من لغة لأخرى فهو في الإنجليزية "cat" وفي الإسبانية "gato"، وفي الروسية "koska".

7-3- المؤشر: علامة نتعرف فيها على "رابط تجاور" بين مضمونها، وشكلها، ويؤدي المؤشر وظيفة العلامة لأن وجوده المادي في بيئتنا يشير إلى فكرة مرتبطة بهذا الوجود المادي، وبهذا الشكل مثل: أثر أحمر الشفاه على حافة كوب يدل على أن سيدة قد شربت على الأرجح من هذا الكوب. ومثل جيوب بنية تحت عيني زميل تدل على أنه أمضى ليلة بكاملها في العمل[1]، فأحمر الشفاه، والجيوب يعدّان من العلامات المؤشرة.

[1]- المعجمية،- علم الدلالة المعجمي- ، آلان بولغير، ترجمة: هدى مقنص، مركز الدراسات العربية للترجمة، ص: 44.